فصل في قصَّة بلعَام
الذي ما نجا من بحر الفتن بل عام، وما حلَّ به من الانتقام[١]

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[الأعراف: ١٧٥]. واختلفوا فيمن نزلت على أقوال:

أحدها: في بلعام، قاله ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد والسُّدي، واختلفوا فيه على أقوال، فقال ابن عباس: هو بلعام بن باعوراء من بني إسرائيل، وقال مجاهد: بلعام بن باعور كان نبياً، وقال مقاتل: بلعام بن باعوراء بن ناب بن لوط عليه السلام، وكان من مدينة الجبَّارين الكنعانيين، وقال موسى بن طلحة: كان من البَلْقَاء، وملكها يقال له: بالق[٢].

والثاني: أنها نزلت في أميَّة بن أبي الصلت، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الزمان، فطمع أن يكون هو، وسنذكره في نبَّوة نبيِّنا ﷺ، قاله عبد الله ابن عمرو بن العاص وابن المسيَّب وأبو روق وزيد بن أسلم.

والثالث: أنها نزلت في البسوس، فروى عكرمة عن ابن عباس قال: كان رجل من بني إسرائيل كانت له امرأة دميمة، وله منها أولاد، وكان للرجل ثلاث دعوات مستجابات، فقالت المرأة: اجعل لي منها دعوة، قال: وما هي؟ قالت: تجعلني أجملَ امرأة في بني إسرائيل، ففعل، فرغبت عنه، فغضب ودعا عليها فصارت كلبةً نبَّاحة، فذهبت فيها دعوتان، فجاء بنوها وقالوا: لا صبر لنا على هذا، فإن الناس يعيِّروننا ويقولون: أمكم كلبةٌ نبَّاحة، فدعا لها فرجعت إلى حالها الأول، فنفذ فيها ثلاث دعوات.

واختلفوا في البسوس:

---

(١) جاء في (ب): الباب السابع عشر في قصة بلعام، والمثبت من (ط)، وانظر في هذه القصة: تفسير الطبري ١٣/ ٢٥٢ فما بعدها، وتاريخه ١/ ٤٣٩، «عرائس المجالس» ص ٢٣٩، تفسير الثعلبي ٤/ ٣٠٤، تاريخ دمشق ٣/ ٤٢٦ (مخطوط)، «التبصرة» ١/ ٢٦٢، «المنتظم» ١/ ٣٥٥، «زاد المسير» ٣/ ٢٨٦، «تفسير البغوي» ٢/ ٢١٣، «الكامل» ١/ ٢٠٠، تفسير ابن كثير.

(٢) انظر «زاد المسير» ٣/ ٢٨٧.

فقال كعب: هو اسم الرجل، وقيل: اسم امرأة، وليست هذه البسوس التي أهاجت الحرب بين بكر وتغلب بن وائل، وسنذكرها فيما بعد.

والخامس: أنها عامة في كلِّ مَن انسلخ عن الحق من بعد ما أعطيه من اليهود والنصارى والمسلمين، قاله الرَّبيع بن أنس.

والسادس: أنها نزلت في المنافقين، قاله عكرمة.

والسابع: في قريش، أتتهم آيات الله على لسان رسوله فانسلخوا منها، قاله عبادة بن الصامت.

والثامن: في منافقي أهل الكتاب كانوا يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم ولكن انسلخوا منه، قاله الحسن وابن كيسان.

والتاسع: في الرهبان الذين آتاهم الله الإنجيل فانسلخوا من أحكامه يرضون النصارى بذلك فغيَّروا وبدّلوا، قاله مقاتل.

والعاشر: أنه ضُرِبَ مثلاً لمن أعرض عن الهدى بعد أن عرض عليه، قاله مقاتل.

والمشهور: أنها نزلت في بلعام، وقيل: إنه كان يسكن قرية من قرى الشام يقال لها: بالعة.

فصل في ذكر قصته

ذكر علماء السير كابن عباس ووهب والسُّدي وابن إسحاق وغيرهم: أنه كان قد أوتي الاسم الأعظم، وكان يسكن بالبلقاء، فلما نزل موسى عليه السلام على أَرِيحا لحرب الكَنعانيين أتى قومُ بلعام إليه وقالوا: هذا رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وقد جاء ليخرجنا من أرضنا ويُحلَّها بني إسرائيل، ونحن بنو عَمِّكَ، وأنت رَجُلٌ مجابُ الدعوة فادعُ عليه أن يردَّه الله عنَّا، فقال لهم: ويحكم، نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! إن فعلتُ ذلك ذهبتْ دنياي وآخرتي. فبكوا وتضرَّعوا إليه فقال: حتى أؤامرَ ربي، وكان لا يدعو حتى يرى ما يؤمر به في المنام، فتآمر في الدعاء عليهم فقيل له في المنام: لا تدعُ عليهم، فقال لقومه: قد أُمرتُ أن لا أدعو عليهم، فأهدوا له هدايا كثيرة ورشوة فافتتن، ووعدهم أن يدعو عليهم.

وقال مقاتل: نصب له ملك البَلْقَاءِ خشبةً، وأراد صلبه لامتناعه من الدعاء عليهم، فركب أتاناً وخرج متوجهاً إلى جَبَل يُطْلِعُهُ على عسكر موسى، فوقف على جبل حسبان المطلِّ على الغور وعسكر موسى قريبٌ من أَرِيْحَا، فما سار على الأتان غير بعيد حتى ربضت به، فنزل عنها وضربها حتى إذا أَذْلَقَها الضرب قامت، فركبها فلم تسر غير بعيد حتى ربضت، فنزل عنها وأخذ يضربها، فقالت له: وَيْحك إلى أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي[1] يردونني؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم يرتدع حتى وقف عليهم ودعا عليهم، فجعل لا يدعو عليهم بشيء من الشر إلا انصرف إلى قومه، ولا يدعو لقومه بشيءٍ من الخير إلا صرفه الله إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: وَيْحَك ما هذا؟ فقال: شيءٌ لا أملكه، إلا أنه قد دعا عليهم أن لا يدخلوا المدينة فوقعوا في التيه[2].

وخرجت من صدره حمامةٌ بيضاء وهي الإيمان والمعرفة.

وقال موسى: يا إلهي قد سمعتَ دعاءَه علينا فاسمع دعاءَنا عليه: اللهم انزع منه الاسم الأعظم، فنزع منه في الحال، واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لقومه: ذَهَبَتْ منِّي الدنيا والآخرة، ولم يبقَ إلا المكر والحيلة، وسأحتال لكم، زيِّنوا النساءَ وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر ليبعنها فيه، وأمروهن أن لا يمنعن من أرادهنَّ فإنه إن زنى رجل منهم كُفيتم أمرهم، ففعلوا ذلك، فمرَّت امرأة من الكنعانيين يقال لها: كشى بنت صور برَجُلٍ من زعماء بني إسرائيل يقال له: زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يَعْقُوب فأعجبته، فقام وأخذ بيدها، ثم جاء حتى وقف على موسى عليه السلام وقال: إني لأظنك ستقول هذه حرام عليك، فقال: أجل والله إنها لحرامٌ عليكَ فلا تقربها، فقال: والله لا نطيعك في هذا، ثم دخل بها قبَّتَه فزنى بها، فأرسل الله عليهم الطَّاعونَ في الوقت، فمات منهم في ساعةٍ واحدة سبعون ألفاً، وكان فنحاص بن العيزار صاحب أمر موسى غائباً، فجاءه وكان شديد القوى فرأى الطاعون يجوسُ في بني إسرائيل، فقال: ما هذا؟ فأُخبر الخبر، فأخذ حربته وكانت من حديد

(١) في (ب): الملائكة والنار أمامي.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٥٨، وعرائس المجالس ٢٤٠. وأذلَقها: بلغ منها الجهد.

كلها، ثم دخل القبة على زمري وهو مضاجع المرأة فانتظمهما بحربته، وخرج بهما رافعاً حربته إلى السماء، قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى جنبه ـ وكان بكر العيزار ـ وجعل يقول: اللهم من يعصيك كذا نفعل به، فهلك من بني إسرائيل من ساعة زنى بالمرأة إلى ساعة فعل فنحاص ما فعل سبعون ألفاً كما ذكرنا، وقيل: تسعون ألفاً، فمن هناك يعطي بنو إسرائيل ولدَ فنحاصَ من كلِّ ذبيحة يذبحونها القِبَّةَ والذِّراع واللحي، باعتماده الحربة على خاصرته وأخذه إياها بذراعه وإسناده إياها إلى جنبه، والشطرَ من أموالهم وأنفسهم في النكاح.

وقال الجوهري: القِبَّة بالكسر ذاتُ الأطباق، وهي الحِفْثُ، وقال في حرف الثاء الفَحِث ـ بكسر الحاء ـ لغةٌ في حَفِث الكَرِش، وهو القِبَّةُ ذات الأطباق، ذكرها في موضعين[1].

واختلفوا في الآيات:

قال ابن عباس والسُّدي: هي الاسم الأعظم.

وقال ابن يزيد: كان لا يسأل الله شيئاً إلا آتاه الله.

وروي عن ابن عباس أنه قال: أوتي كتاباً من كتب الله.

وقال مقاتل: الآيات حجج الله وفهمُ الأدلة.

وقال مجاهد: هو نبي في بني إسرائيل يقال له: بلعم بن باعور أو باعر، أوتي النبوَّة فرشاه قومه على أن يسكت عنهم، فسكَتَ وتركهم على ما هم عليه.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرج كما تنسلخ الحيَّةُ من جلدها ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥] أي: أدركه ولَحِقَهُ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[الأعراف: ١٧٥] الضالين ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أي: فضلناه وشرفناه وعصمناه ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ركن إليها وسكن ورضي بالدنيا من الآخرة، وهذا مَثَل ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: انقاد له. وحكى الثعلبي عن يمان بن رئاب قال: ﴿هَوَىٰهُ﴾ أي: امرأته لأنها حملته على الخيانة وطلب الدنيا ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾

(١) «الصحاح»: (قبب) و(حفث) و(فحث).

[الأعراف: ١٧٦] قال مجاهد: منقطع الفؤاد لا يزال يلهث حملت عليه أم لا. وقيل: إنْ وعظته أو لم تعظه سواء عليه. وقال ابن عباس: معناه: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن ترك لم يهتد إلى الخير. وقال ابن قتيبة: كل شيء من الحيوانات إنما يلهث من عطش أو إعياء إلا الكلب فإنه يلهث على كلِّ حال، فضربه الله مثلاً لمن كذَّب بآياته وهو من لم ينتفع بعلمه. فقال: إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال[١]. وقال مقاتل: زجر في منامه فلم ينزجر، وخاطبته الأتان فلم ينتبه، وهذا رجل لم ينفعه علمه بل ضرَّه وكان وبالاً عليه.

وقال منصور بن زاذان: نبئتُ أن بعض من يُلقى في النار يتأذَّى أهلُ النار بنتن رائحته، فيقولون له: ويلك ما كفانا ما نحن فيه من الشر حتى ابتلينا بنتن ريحك، ما كنت تعمل في الدنيا؟ فيقول: كنت عالماً فلم أنتفع بعلمي.

وقال السُّدي: ثم إن موسى صعد إلى البلقاء وحارب قوم بلعام، وقتل ملكهم بالق وأسر بلعام فقتله شرَّ قتلة، وهذا ما انتهى إلينا، والله أعلم.

فَصلٌ في ذِكْر قارُون وَسَلْبِه كُلّ مَكنُون وَمَخزُون[٢]

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[القصص: ٧٦] الآية. واختلفوا في نسبه إلى موسى على أقوال:

أحدها: أنه كان ابن عمه لأن موسى: ابن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، وقارون هو ابن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال ابن جريج والنخعي.

والثاني: ابن خالته رواه عطاء عن ابن عباس.

والثالث: كان عمَّ موسى عليه السلام، قاله محمد بن إسحاق[٣].

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٩٧ ـ ٩٨، وانظر «تأويل مشكل القرآن» ص ٢٨٦.

(٢) جاء في (ب): الباب الثامن عشر في ذكر قارون، وانظر في قصته: «تاريخ الطبري» ١/ ٤٤٣، «تفسير الطبري» ٢٠/ ١٠٥، «عرائس المجالس» ص ٢١٥، «التبصرة» ١/ ٢٥١، «المنتظم» ١/ ٣٦٥، «زاد المسير» ٦/ ٢٣٩، «البداية والنهاية» ١/ ٣٠٩، «الكامل» ١/ ٢٠٤.

(٣) انظر «التبصرة» ١/ ٢٥١.